

ماذا يعني أن الإنسان خليفة الله؟ وهل يشمل هذا المقام جميع البشر؟

من هو خليفة الله ولماذا الإنسان خليفة الله؟
تُعتبر عبارة "الإنسان خليفة الله" من أكثر العبارات تداولاً في الأدبيات الدينية. لكن ما المعنى الحقيقي لهذه العبارة؟ ماذا يعني أن يكون الإنسان خليفة الله؟ وما معنى كلمة "خليفة" أساساً؟ ولماذا اختير الإنسان ليكون خليفة الله؟
كلمة "خليفة" في اللغة تعني النائب، الوكيل، القائم مقام، البديل، أو المظهر. بناءً على هذا التعريف، فإن "خليفة الله" تعني النائب والمُمثّل عن الله. وبالتالي، فإن المعنى الحرفي لعبارة "الإنسان خليفة الله" هو أن الإنسان هو مظهر لله، ونائبه، والقائم مقامه على الأرض. لكن السؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان هو: أين ذهب الله حتى يحتاج إلى خليفة؟

عادةً ما يُعيّن النائب أو المُمثّل ليحل محل الشخصية الأساسية في حال غيابها، ولكن الأمر مختلف في ما يتعلق بالله. نحن نؤمن بأن الكون بأسره هو محضر الله، وأنه "فَأَيَّتَمَّا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ".^١ بناءً على هذا الإيمان، فإن معنى عبارة "الإنسان خليفة الله" لابد أن يكون أعمق من المعنى الحرفي.
في البحث عن مفهوم "خليفة الله" ومقام الخلافة، نسعى للإجابة على الأسئلة التالية:

- هل يحتاج الله إلى خليفة؟
- كيف يتوافق مفهوم الحاجة إلى خليفة مع صفة "الصمد" لله عز وجل؟
- ما هو مقام خليفة الله وما هي خصائص هذا الدور ومميزاته؟
- هل يختص لقب "خليفة الله" بأشخاص معينين فقط؟
- هل يمكن لجميع البشر الوصول إلى مقام "خليفة الله"؟

^١ فَأَيَّتَمَّا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ؛ سورة البقرة، الآية ١١٥

- ما هي المسؤوليات الملقاة على عاتق الإنسان كخليفة لله؟
 - هل هناك درجات ومستويات مختلفة لمقام "خليفة الله"؟
 - ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين الله وخليفة الله؟
 - هل الوصول إلى مقام "خليفة الله" أمر اختياري أم أنه حتمي وبأي ظروف؟
 - هل يرتبط مقام الخلافة والمظهرية الإلهية بجانب معين من أبعاد وجود الإنسان؟
- في هذا الدرس، سنجيب على هذه الأسئلة ونتعرف على خصائص مقام الإنسان كخليفة لله، من خلال مناقشة قضايا تتمحور حول الإنسان وهدف خلقه.

ما الحكمة من وجود خليفة الله على الأرض؟

أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى مسأل استخلاف الإنسان ومقام خلافة الإنسان في الأرض بقوله للملائكة: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً".^٢ نحن نؤمن بأن الله موجود في كل مكان،^٣ وهو أقرب إلينا من حبل الوريد؛^٤ مع هذا الإيمان العميق بحضور الله، قد يبدو من الصعب أن نتقبل فكرة وجود خليفة لله على الأرض. فكيف لإله حاضر في كل مكان أن يحتاج إلى خليفة أو وكيل؟ في تحليل مسألة وجود خليفة الله على الأرض، يتضح أن فهمنا لمعنى "الخليفة" ودوره هو المفتاح لفهم هذه القضية. لا بد لنا أن نتساءل: هل تحمل كلمة "الخليفة" في خطاب الله للملائكة معنى خاصًا يتجاوز الفهم السطحي؟

^٢ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً؛ سورة البقرة، الآية ٣٠

^٣ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ؛ سورة الحديد، الآية ٤

^٤ وَتَحْسَبُ أَنَّ الْوَيْدَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؛ سورة ق، الآية ١٦

الله سبحانه وتعالى غني مطلق، ولا يمكننا أن نتصوّر احتياجه في أي جانب، لأن هذا يتناقض مع صفة صمديته. بحثنا في دروس سابقة حول غنى الله وصمديته وأثبتنا ذلك بوضوح، وبالتالي فإن فكرة احتياج الله إلى خليفة تصبح مستبعدة تمامًا. من هنا، ينبغي أن ندرس مسألة الاحتياج من جانب الإنسان.

إن الله حكيم ولا يفعل شيئًا بلا حكمة أو غاية. لذا، فإن وجود خليفة لله على الأرض لا بد أن يكون استجابة منطقية وواقعية لحاجة حقيقية داخلية. وبما أن الله غني عن العالمين، فإن هذا الاستخلاف يجب عن احتياجات الإنسان نفسه. عندما نتأمل في أن كل ما خلقه الله مرتبط بشكل أو بآخر بالإنسان وغاية وجوده، نجد أن وجود خليفة الله على الأرض مرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذه الغاية. لكن ما طبيعة هذا الارتباط؟ إن معرفة صفات خليفة الله وفهم مقام الخلافة بعمق يساعدنا على إدراك حقيقة هذا الارتباط وكيفيته.

ما هي فلسفة وجود خليفة الله على الأرض؟

لقد سبق وأن ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى، غني عن كل شيء، ولا يحتاج إلى خليفة. ومع ذلك، فحكيمته البالغة تدعوه إلى خلق الإنسان وتعيينه خليفة في الأرض، وذلك ليكمل الإنسان دوره في الحياة ويحقق الغاية من خلقه.

الله هو الكمال المطلق والوجود اللامحدود، ولا يمكن الوصول إليه أو إدراكه إلا من خلال خليفة الله. إن أهمية وجود خليفة الله على الأرض كبيرة لدرجة أنه لا بد أن يكون هناك نموذج كامل لهذا المقام في كل زمان بين الناس. ولهذا السبب فقد أمر الله النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يعرّف الخليفة من بعده، وإلا فإنه لم يُبلِّغ رسالته.^٥

^٥ يا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ؛ سورة المائدة، الآية ٦٧

يُجسد خليفة الله جميع صفات الله وكمالاته في ذاته، مما يجعله نموذجاً حياً وملموساً للإنسان الذي يسعى للوصول إلى هذا المقام وتحقيق صفاته إلى مرحلة الكمال. يشرح المفسرون سرّ تعيين خليفة على الأرض بقولهم: «مع أن الله سبحانه وتعالى دائم الفيض على جميع الموجودات، إلا أن الكائنات الأرضية لا تملك القدرة على تلقي الفيض الإلهي مباشرةً، ولا على استلام أحكام الله تعالى بلا واسطة، ولا على استيعاب العلوم والمعارف الإلهية مباشرةً منه. فهذه الكائنات بحاجة إلى من يكون ملماً بلغة حالها، يستطيع التحدث معها بلغة تفهمها وتستجيب لها. إنها لا تتعلم ولا تقتدي إلا عندما ترى شخصاً يمثل لها النموذج الحي. فبما أن الإنسان والمخلوقات الأرضية قاصرة ولا تملك القدرة على الاستفادة المباشرة من الله سبحانه، فقد قرر الله تعالى أن يعين خليفة.»^٦

ما هو مقام الإنسان كخليفة الله؟

في مسألة الخلافة والنيابة، يُختار عادةً أكمل نموذج ليكون نائباً وخليفة. بناءً على ذلك، يجب أن يكون خليفة الله أشبه وأكمل نموذج يعكس أسماء الله وصفاته وكمالاته. خليفة الله هو مظهر وآية الكمال الإلهي، وهو صاحب جميع الأسماء والصفات الإلهية. الفارق الوحيد بينه وبين الله تعالى هو أن ذات الله قائمة بذاتها؛ لأنه الوجود والمطلق من حيث الكينونة، بينما خليفة الله قائم بالله تعالى. يقول العلامة الطباطبائي في وصفه لصفات مقام الخلافة وشؤونها: "إحدى شؤون الخليفة هي أنه يعكس صفات وأفعال المستخلف، ويكون مرآة لصفاته، ويكون عمله مطابقاً لما له، وبناءً على ذلك، يجب على خليفة الله في الأرض أن يتحلى بأخلاق الله تعالى، وتتفق إرادته مع إرادة الله، وتتوافق أحكامه مع أحكام الله، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحكم إلا بالحق (وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ)، فلا يجوز للخليفة أن يحكم إلا بالحق، ولا أن يسلك سوى طريق الله، ولا يتعدى حدوده أو يخرج عن صراطه."^٧

٦ الجواد الآملي، عبدالله، تفسير سورة البقرة، الجلسة؛ ١٣٦٤/٠٧/٩٣٢٢

٧ العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ١٧، ص ١٩٤

من الصفات الأخرى لخليفة الله هي أنه يمنح الحياة والبقاء. خليفة الله قادر على منح حياة أعلى وأسمى من حياة الحيوانات والملائكة، وهي حياة إنسانية أو حياة طيبة. كلما كان ارتباطنا أعمق بالخلفاء الإلهيين، كلما حصلنا على نصيب أكبر من هذه الحياة الإنسانية.

بما أن مقام الخلافة هو مقام اكتساب الأسماء والصفات الإلهية، فإن من يحمل صفات وكمالات إلهية أكثر يكون أكثر شبيهاً بالله. وللوصول إلى مقام خليفة الله، يجب أن يكون الإنسان موجوداً على الأرض، لأن الأرض، بخلاف الجنة، هي موضع تضاد و صراع، ومن خلال هذه التضادات يستطيع الإنسان أن ينمو ويتطور.

في ظل ظروف التضاد، ومن خلال الاختيار بين "الذات الإلهية الأبدية" وبين "الذات العقلية والوهمية والخيالية"، يمكن للإنسان أن يكتسب الأسماء الإلهية ويصل إلى مقام الخلافة ويصبح تجسيدا لصفات الله وكمالاته. لذلك، في مسيرتنا نحو هذا المقام، نجد أنفسنا في صراع دائم بين مختلف جوانب وجودنا.

الهدف من خلق الإنسان هو أن يصبح جانبه المتعلق بما وراء العقل شبيهاً بالله ومظهراً له، ويصل إلى مقام خليفة الله. أما بقية الجوانب الأخرى فهي خدمية وتمهيدية. وبقدر ما نُسخّر هذه الجوانب الأربعة لخدمة ما وراء العقل في وجودنا، نُحقّق إنسانيتنا بشكل أعمق. ما يهم في هذه الرحلة هو مدى استخدامنا لخدمات هذه الأبعاد الأربعة لتحقيق الأسماء الإلهية فينا، ومدى تشبهنا بالله.

هل مقام الخلافة الإلهية مخصص لفئة معينة من البشر؟

إن سؤال مدى شمول مقام الخلافة الإلهية لجميع البشر هو سؤال يطرح نفسه بشكل طبيعي في سياق التفكير في مكانة الإنسان في الكون. فمقام الخلافة، كونه تجلياً لأسماء الله وصفاته، يمثل هدفاً سامياً قد يسعى إليه كل شخص. وإن كان هذا المقام متاحاً للجميع، إلا أن درجاته تختلف

باختلاف مدى اجتهادهم في تطوير أنفسهم واقترابهم من الكمال الإلهي. فكلما زاد إيمان الإنسان وتقواه، زاد تجلي أسماء الله وصفاته فيه، واقترب من بلوغ أرقى مراتب الخلافة. إن الأنبياء والمعصومين هم المصداق الأكمل في تجسيد صفات الله تعالى. أما بقية البشر، فهم في رحلة مستمرة نحو هذا الكمال، يسعون جاهدين لتقليد أنبيائهم وأئمتهم والتشبه بالله وتجلي صفاته. لقد نفخ الله من روحه في جميع البشر، وقد وهب الله لهم القدرة على الوصول إلى مراتب عليا من الكمال، تتجاوز حتى مرتبة الملائكة. ففي كل نفس بشرية، كامنٌ قدرة على أن تكون خليفة لله في الأرض.

هذه الروح الإلهية موجودة في جميع الناس، وبفضلها يمتلك كل إنسان ميلاً فطرياً للتشبه بالله والوصول إلى مقام خليفة الله. بنفخة الروح هذه أصبح كل إنسان يحمل إمكانات لا متناهية وحباً فطرياً لله، وبالتالي، يستحق كل إنسان أن يصل إلى مقام الخلافة الإلهية. عندما نفخ الله من روحه في البشر، وضع فيهم استعداداً لتحقيق مقام الخلافة الإلهية. لكن هذا الأمر يعتمد على خياراتنا وسلوكياتنا وقراراتنا الفكرية؛ فنحن من نقرر إذا كنا سنُظهر هذا الاستعداد الكامن فينا أم لا.

يشير العلامة الطباطبائي في تفسيره للآيتين ٣٠ و ٣١ من سورة البقرة إلى أن هاتين الآيتين الكريمتين تتحدثان عن مكانة الإنسان الرفيعة كخليفة لله في الأرض وكيف أن الله قد منحه العلم والمعرفة: "فالخلافة غير مقصورة على شخص آدم (ع) بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، و يكون معنى تعليم الأسماء إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجاً دائماً و لو اهتدى إلى السبيل أمكنه أن يخرج من القوة إلى الفعل".^٨

^٨ طباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، ٢٠ جلد، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - لبنان - بيروت، چاپ: ٢، ١٣٩٠ هـ.ق. ج ١، ص ١١٦

لذلك، فإن مقام الخلافة الإلهية ليس حكرًا على أشخاص محددين، بل يمكن لأي إنسان أن يصل إليه بشرط أن يسلك الطريق الصحيح ويحقق هدف الخلق الإنساني. وكلما نما الإنسان في هذا المسار، ازداد مقامه في الخلافة الإلهية وارتقى إلى مراتب أعلى. لقد الله خلقنا جميعاً لنكون تجسيداً لعبارة "الإنسان خليفة الله". ومع ذلك فقد منحنا حرية الاختيار، وترك لنا القرار في قبول هذا الهدف السامي والسير نحوه بإرادتنا.

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer